فلاسفة الدين في الفترة المعاصرة

إدجار شيفليد برايتمان ١٨٨٤ـ١٩٥٣

ويعد برايتمان من أشهر الفلاسفة الأمريكيين اهتماما بفلسفة الدين في القرن العشرين، فقد سارت جل مؤلفاته في مناقشة الموضوعات الدينية، ومن أهم هذه المؤلفات: «قيم دينية» ١٩٢٥، «فلسفة المثل» ١٩٢٨، «مشكلة الله» ١٩٣٠، «وجود الله» ١٩٣١، «هل الله شخص» ١٩٣٢، «القوانين الأخلاقية» ١٩٣٣، «الحياة الروحانية» ١٩٤٢، «الشخصية والدين» ١٩٣٤، «مستقبلا لفصل الثالث: مفهوم فلسفة الدين ٨٥المسيحية» ١٩٣٧، «الشخصانية في اللاهوت» ١٩٤٣، ويبقى كتابه «فلسفة الدين» ١٩٣٧ من أهم الكتب التي اهتمت بالتنظير لفلسفة الدين في القرن الماضي.

ونتيجة لهذا ال هتمام يصنفه الكثير من الباحثين على أنه فيلسوف دين من المقام الأول. ويرى برايتمان أن الدين هو امتلاك الفرد أوالجماعة خبرة دينية، تلك الخبرة التي تشكلها العقائد المتعلقة بموجود أو قوة سامية هي الله، وهذه القوة السامية هي مصدر كل القيم.

ومن ثم تمثل هذه الخبرة الدينية علاقة الشخص مع الله. ويضع برايتمان لها قواعد وأسسا من أهمها: الإيمان الذي يمثل قاعدة أساسية للخبرة الدينية، لأنه يمثل عقيدة الإنسان في الله، وعلى ضوئه ينعكس سلوك الإنسان في الحياة، كما يحقق التوازن الداخلي للإنسان بين قدرات الإنسان وطموحاته ومثله العليا. كما يمثل الوحي القاعدة الثانية من قواعد الخبرة الدينية، وهو بصيرة يوحي الله به ويكشف عن ما يريد كشفه للإنسان المؤمن. والوحي نوعان: عام وخاص، الأول يمثل سلطة الله التي تتكش ف للناس، والخاص هو ما يوجد للشخص في لحظات إيمانية سامية، ويمثل الخلاص الفردي للإنسان. أما الهداية فتمثل القاعدة الثالثة للخبرة الدينية عند برايتمان وهي خبرة العديد من الأشخاص بغض النظر عن تفسير هذه الخبرة ويرى برايتمان أن هذه الخبرة الدينية تتطور عبر مراحل أربعة، المرحلة الأولى هي التأمل الذاتي الباطني، أي التفكير في الله وفي الموضوعات الإلهية، ومن خلال التأمل يعيش الإنسان تجربة دينية فريدة يتحول فيها الإنسان من مؤد شكلي للطقوس والشعائر إلى إنسان يعيش هذه الشعائر في ذاته ويتصرف على ضوئها.

أما المرحلة الثانية فهي الصلاة بالمعنى الواسع لمفهوم الصلاة كصلة بين العبد وربه، ومشاركة الفرد في علاقة روحانية مع الله ومن خلالها يتحقق للإنسان الهدوء والتوافق النفسي. بينما تتمثل المرحلة الثالثة في التصوف كتجربة روحية فردية روحانية تعتمد على تطهير النفس وسموها وتجاوزها حدود العالم المحسوس للدخول في درجات من العبادة الروحانية الخالصة.

أما المرحلة الرابعة فهي التعاون الذي يمثل فعلا اجتماعيا بناء يساعد في تطوير القيم الروحانية، لأن الدين ما هو إلا صلة ومشاركة فردية في نشاط مع الله، سواء في الصلاة أو غيرها من العبادات أو الشعائر الدينية الأخرى

ويعرف الله عند برايتمان إما عن طريق الخبرة المباشرة مع الله معرفة حدسية، أو عن طريق الوحي، أو عن طريق العقل ومبادئه الأولية القبلية. وقد تطرق برايتمان لعلاقة العلم بالدين وأشار أن ظاهر العلاقة يوحي بالتناقض والتعارض نتيجة لختلاف مجال

العلم عن مجال الدين، ولكنهم في الحقيقة يتكاملان ول يستغني أحدهما عن الآخر. فلا يستطيع الإنسان أن يستغني عن العلم كما أنه ل يستطيع أن يستغني عن الدين، وهو في حياته يحتاج العلم لحياته المادية ويحتاج الدين لحياته الروحانية، فالدين يحقق للإنسان الراحة والهدوء والسكينة والطمأنينة.

وأهم ما يمكننا الوقوف عنده في فلسفة الدين عند برايتمان هو تصور برايتمان للإله كشخص متناه زمني؛ حيث زعم أن دراسته للخبرات الإنسانية في رؤيتها للإله قد أوصلته إلى أن الإله شخص وأنه متناه. ومن ثم لم يكن غريب ا أن يعقد مقارنة مثيرة بين الإله والإنسان، ووصل إلى نتائج مضادة، إن لم تكن صادمة للوعي الديني القائم على التنزيه، بحجة أن الإيمان الشخصاني بالإله «فرض» يف سر الخبرة وما تحتويه من أمور دون أن يفضي إلى وقوع شيء من التناقض . ١فلا شك أن فلسفة تزعم شخصانية الإله وتناهيه وزمنيته هي فلسفة جديرة بالفحص النقدي. خاصة إذا عرفنا أن الأساس عند برايتمان في القول بتناهي الإله هو رفض العتراف بإمكانية معرفة الإله الشر، إل إذا مر بتجربة معاناة حقيقية، وخاض خبرة الشعور بالألم والتناهي. كما ترتبط فكرة تناهي الإله بفكرة الشخصانية التي ترى أن خصائص الشخص الإلهي مؤسسة على خبرتنا بأنفسنا كأشخاص. ومن ثم خلص برايتمان إلى وجود أوجه للشبه وأوجه أخرى للاختلاف بين الإله والإنسان، ولذا لم يكن غريب ا أن يزعم أن الإله سرمدي وزمني في آن واحد .٢فمن الملاحظ أن برايتمان قد وضع مهمة استكشاف الإله في مرمى قدرات العقل الإنساني، وأن بإمكانه تحديد ماهية الإله بدقة كما لو كان موضوعا تجريبيا صرفا يحيط الإنسان بكل أبعاده ومحتوياته، مما أوقعه في شناعات ل حصر لها. ومع ذلك يبقي برايتمان من أهم المنظرين لفلسفة الدين في القرن العشرين.

جون هيك ١٩٢٢ – ٢٠١٢

يعد جون هيك من أهم المنظرين لفلسفة الدين في العصر الراهن، حيث قد م مساهمات مهمة في إبستمولوجيا الدين والتعددية الدينية. وكشف كتابه «فلسفة الدين» عن ثراء معرفي في تحديد مفهوم «فلسفة الدين» عاد إليه الكثير من الباحثين في فلسفة الدين في كافة أنحاء العالم. كما حاز رأيه في أنه ليس من المهم أن يكون فيلسوف الدين متدين ا بدين ما قبول عاما عند المهتمين بدراسة فلسفة الدين، إذ إن فلسفة الدين ليست جزءا من التعاليم الدينية، ول يجب أن تعال ج من وجهة نظر دينية، فالملحد واللاأدري والمؤمن جميعهم يمكنهم التفلسف حول الدين، ومن ثم أبعد جون هيك فلسفة الدين عن فروع اللاهوت ونسبها كاملة إلى الفلسفة، وعد ها فرعا من فروعها يدرس المفاهيم والمعتقدات الدينية، كما يدرس الظاهرة القبلية للتجربة الدينية، وأعمال العبادة والتأمل التي تقوم عليها المعتقدات الدينية١ وقد اشتهر جون هيك بدراساته حول مفهوم الإله والبحث عن ماهية صفاته المختلفة ونقد التصور المسيحي واليهودي للإله.

كما اشتهر بتأييده للتعددية الدينية والتي تختلف مع التعاليم الدينية المسيحية، مما جعله يلقى هجوما نقديا من الكاردينال جوزيف راتسنجر Cardinal Joseph Ratzingerعندما كان رئيس المكتب المقدس. إذ يرى هيك في كتابه «أسماء متعددة للإله» أن الأديان العظمى في العالم ما هي إل استجابات متنوعة لحقيقة إلهية واحدة

محتجبة عن الإدراك البشري .١ومن ثم ل يفرق بين دين حق ودين باطل، بل إن كل الأديان عنده تعبر بأساليب مختلفة عن الحقيقة الإلهية المحتجبة؛ كما يرى جون هيك أن كمال الفكر البشري لا يكون إلا بالمصالحة بين الإيمان والمعرفة. وأن الإنسان متدين بطبعه، وأن معرفة الله وكل الأمور الغيبية لا تكون إلا عبر التجربة الروحية والاختبار الديني.

وأن الدين في مجمله ليس سوى تفسير أو تأويل لجملة تجارب دينية متراكمة داخل بيئة حضارية خاصة، ويعبر عنها بعبارات ثقافية ولغوية خاصتين. وأن المعرفة الناتجة عن التجربة الدينية لا تقل بأي صورة عن أي معرفة تجريبية أخرى.

ورفض هيك ذلك الرأي الشائع الذي تبناه التقليد اللاهوتي المسيحي الذي يرى أن الشر هو الحرمان من الخير والنعمة الإلهية كنتيجة حتمية لوقوع البشر في الخطيئة، بل الشر بحسبه هو جزء من التدبير الإلهي في اختبار البشر وفي صناعة مصائرهم بحرية. أي إن كل الشر يعود في النهاية إلى خير أكبر، فالإله هو مصدر الألم وهو يرسله للبشر، من أجل خلق خير أكبر لم يكن ممكنا إلا به؛

ولذلك لم يكن غريبا أن يرى جون هيك أن الجميع سينجو في النهاية، وأنه لن يكون هناك جحيم؛ فكل دين يعلن أن وضعية البشر في الآخرة هي خارج حدود خيالنا ومعرفتنا.

كما يرى جون هيك أن القول بأن الله تجسد في المسيح عبارة مجازية وليست حرفية ، وتعني أن المسيح نفذ إرادة الله واستجاب لها بالكامل، حتى أصبح المسيح تجسيدا كاملا لحضور الله، واستحضارا أقصى لمحبته الشاملة. وأن الحق الأعلى واحد، لكنه يتعدد بتعدد ظهوره وتجليه في تاريخ الحضارات والديانات. وأن الله لا يعرف بذاته بل من خلال تجليه وظهوره لنا، أي إن حقيقة الله عند البشر هي جزء من تجربتهم به، ومن طبيعة علاقتهم معه. ومن الواضح أن أفكار جون هيك حول فلسفة الدين ما زالت تحتاج الكثير من الدراسات لتقف على مراميها كما تجلت في مؤلفاته المتعددة ومن أشهرها: «الإيمان والمعرفة» ، ١٩٥٧، «الشر والله المحب» ، ١٩٦١، «فلسفة الدين» ، ١٩٦٣، «المسيحية في المركز» ، ١٩٦٨، «أدلة وجود الله» ، ١٩٧١، «الله وعالم المعتقدات» ، ١٩٧٣، «أسطورة تجسد الإله في السيد المسيح» بالاشتراك ، ١٩٧٩، «أسماء عديدة للإله» ، ١٩٨٠، «لماذا الإيمان بالله» ، ١٩٨٣، «إشكالات حول التعددية الدينية» ، ١٩٨٥، «الموت والحياة الأبدية» ، ١٩٨٥، «تأويل الدين» ، ، ١٩٨٩، «أسئلة محل جدل في اللاهوت وفلسفة الدين» ، ١٩٩٣، «مجازية تجسد الإله» ، ١٩٩٣، «الموت مسيحي للأديان» ، ١٩٩٥، «جون هيك: سيرة ذاتية» ، ٢٠٠٢. وهكذا عكست غزارة إنتاج جون هيك مدى مساهماته الجوهرية في تشكل فلسفة الدين في العصر الراهن، بل تجعله هذه المؤلفات المتخصصة جدا أحد رواد فلسفة الدين المهيمنين على موضوعات فلسفة الدين والذين انتقلوا بها نقلات نوعية كبيرة. فقد عمل على تحريك الإشكال في المسائل الدينية، وذهب بشكه إلى المسائل الخطرة والتي تتعلق بصميم العقيدة المسيحية كالتثليث والتجسد وعالجها معالجة عقلانية خالصة انتهت إلى رفضه لها.

وتكمن أهم مساهماته ـ من وجهة نظري ـ في أنه فرق بين ل هوت دوجماطيقي ولاهوت إشكالي، يعمل الأول على حفظ التقاليد الدينية الموروثة على أنها الحقائق المطلقة الصالحة لكل زمان ومكان، في حين يعمل اللاهوت الإشكالي على الحوار الدائم بين تلك العقائد الموروثة وبين التطورات الحادثة في العالم المتغير. فإذا كانت نتائج اللاهوت القطعي نهائية فإن نتائج اللاهوت الإشكالي هي فرضيات قابلة للمراجعة والنقد. اللاهوت الأول يعيق سفينة الإيمان من الإبحار في حين أن الثاني يدفعها بقوة نحو الحقيقة المحتجبة، ولذلك يعد نفسه من أصحاب اللاهوت الإشكالي. ولذلك تعد أفكار جون هيك أفكارا مفتوحة دائما ومطروحة للنقاس وقابلة دائما للتجاوز.

ولا يعني التوقف عند جون هيك أن هؤلاء فقط هم الفلاسفة الذين تناولوا فلسفة الدين في الغرب، بل هؤلاء كانوا أشهر من اهتموا بفلسفة الدين، وإلى جانبهم وعلى نفس القدر من الأهمية يمكننا أن نضع فلاسفة آخرين من أمثال: فيشته وشلايرماخر وشلنج وشوبنهاور وماكس فيبر وهابرماس وريتشارد سوينبرن. فقد كان لجهودهم في هذا المجال مكانتها المؤثرة عند جل الدارسين المتخصصين.

خلاصة القول إنه لم تتوقف هذه الكتابات مع القرن الحادي والعشرين، سواء في الغرب أو في الشرق، بل بالعكس، زادت الاهتمامات حول فلسفة الدين، وخاصة بعدما تعالت الأصوات في الغرب، التي تصف هذا القرن بأنه قرن العودة إلى الدين، وقرن العودة إلى إحياء ما أماتته القرون الثلاثة من انزواء الدين في القرن الثامن عشر، وموت الإله في القرنين التاسع عشر والعشرين على أيدي هولدرلين ،F. H. Hölderlinوفويرباخ،

وماركس، ونيتشه، وسارتر ١٩٠٥ Sartre ـ ،١٩٨٠وموت الإنسان الفرد في القرن العشرين في نظريات موت الكاتب أو موت المؤلف وموت الناقد من أجل المعنى، وموت المعنى الواحد، وتهافت السرديات الكبرى مع التفكيكيين وفلاسفة ما بعد الحداثة مع نهايات القرن العشرين.

ولذلك كان القرن الحادي والعشرون هو قرن العودة إلى الدين، وهذا ما يمكن ملاحظته من تأويل تشارلز تايلور Charles 1931 Taylor ـ؛ للدلالة السردية في عبارة «عودة الدين» ضمن كتابه «عصر علماني،» الذي أثار ضجة واسعة في معظم الأوساط الثقافية في العقد الأول من هذا القرن. كما سبق كتاب تايلور هذا كتابين للفيلسوف الألماني هابرماس ١٩٢٩ J. Habermas ـ.

كتاب «جدلية العلمنة.. العقل والدين» والذي شارك في تأليفه الأب جوزف راتسنجر، وكتاب هابرماس الذي نشره عام ٢٠٠٥وهو بعنوان «بين الطبيعانية والدين،» والذي تحدث فيه عن فكرة المجتمع ما بعد العلماني أي المجتمع العائد بقوة إلى الدين.

وهذا ما يعكس غاية فلسفة الدين كما صورها هيجل في النصف الأول من القرن التاسع عشر، إذ رأى أن فلسفة التنوير قد أخذت على عاتقها مهاجمة العقيدة، أي الإيمان الذاتي والموضوعي معا، فقضت على سلطة الإيمان كما تقرره الكنيسة، وأ ولت الكتاب المقدس، وأعادت تفسير نصوصه بحيث تتفق مع العقل والأخلاق، وكونت لاهوتا عقليا، وانتهت إلى مذهب التأليه ورفضت المعجزات وكل ما يتنافى مع العقل، وأنكرت الله المشخص، والعقائد الشيئية، وكل مظاهر التشبيه والتجسيم في الدين، وجعلت العقائد المسيحية والحوادث التاريخية التي تقوم عليها الواقعية المسيحية إدراكا نفسي ا أو شعورا عاطفي ا. خلاصة القول إن الفلسفة أصبحت في هذا العصر، عصر هيجل، ضد الدين شكلا وموضوعا . فجاءت فلسفة الدين لحل هذا التعارض بين الفلسفة والدين على أساس موضوعي، لتعطي كل ذي حق حقه، فالله مضمون الدين والفلسفة على السواء، والدين ينتهي حت ما إلى الفلسفة، والفلسفة تؤدي بالضرورة إلى الدين، فكلاهما حاجة شعورية . ولكن إذا كانت هذه غاية فلسفة الدين كما صورها هيجل، إلا أنها تبدأ فعلها بلا هدف مسبق تسعى إلى تحقيقه، أو تنحاز إليه من أجل إثباته.

وبناء على كل ما تقدم يمكننا أن نرد كافة التطورات التي تصف تاريخ «فلسفة الدين» كتخصص دقيق إلى ثلاث مقومات أساسية، هي على التوالي: الماهية، المعنى، السياسة:

فالاول هو البحث التأملي في ماهية الدين منذ كانط .

والثاني : تأويل معنى الإيمان ما بعد اللاهوتي منذ نيتشه أو تحليل دلالة المنطوقات الدينية منذ فتجنشتاين.

والثالث: تفكيك سياسات الخطاب الديني في العصر العلماني منذ تسعينات القرن الماضي، وما بعد العلماني في الألفية الجديدة، وخاصة منذ ندوة كابري عن الدين التي أشرف عليها جاك دريدا J. Derrida وجياني فاتيمو G. vattimo، وكان موضوعها العام: كيف نفسر عودة الدين بعد «موت الإله» المسيحي؟ وهكذا قد مرت فلسفة الدين بمنعطفات مختلفة من تحديد الماهية مع كانط، إلى دور التأويل الديني من منطلقات عقلية صارمة، إلى تفكيك سياسات الخطاب الديني في عصر العلمانية وما بعد العلمانية. وهو الوضع الذي تقف عنده فلسفة الدين في الأوقات الراهنة.